

## الفصل الثالث

«القلب الذي لا يبالي يعيش طويلاً»

شكسبير

## مشاهد أمريكية

أضيت أسابيع بمدينة «نيويورك» في أكتوبر ٢٠٠٤م، وأريد أن أنقل للقارئ العربي بعض المشاهد التي تعكس إلى حد كبير الانطباعات التي تولدت لدى من هذه الرحلة السريعة، التي كان القصد منها المشاركة في اللقاء السنوي بين الاتحاد البرلماني الدولي والجمعية العامة للأمم المتحدة موفداً من رئيس مجلس الشعب المصري، حيث كان موضوع المناقشة هذا العام يدور حول «نزع السلاح»، الأمر الذي جعلني أركز في كلمتي مع بداية الجلسة الأولى للقاء المشترك بين البرلمانيين والدبلوماسيين على طبيعة الوضع المتدهور في الشرق الأوسط مشيراً إلى حجم مبيعات السلاح في المنطقة على امتداد العقود الخمسة الأخيرة، بينما الشرق الأوسط يحتاج إلى المدارس والمستشفيات وليس إلى الدبابات والطائرات، وذكرت أن نفقات التسليح العسكري في العالم كله تأتي على حساب التنمية؛ إذ إن كثيراً من الشعوب الفقيرة تققطع من قوتها ما تشتري به معدات حربية وأسلحة عسكرية لحماية أمنها القومي الذي يتخذ أولوية لديها في ظل الصراعات الدامية والمواجهات الساخنة، وقد أيدني فيما قلت نائب رئيس البرلمان السوري وممثل البرلمان المغربي ورئيس الوفد البريطاني؛ لأنه على ما يبدو أن من يأخذ ناصية الحديث مبكراً في المؤتمرات الدولية تكون له فرصة أفضل طوال المناقشات، والآن أعود مرة أخرى إلى مشاهد أربعة بترتيب حدوثها.

### المشهد الأول

عندما هبطت بي طائرة شركة «لوفتهانزا» في مطار «جون فيتزجيرالد كيندي» قادماً من «فرانكفورت» - حيث شاركت في أعمال معرض الكتاب الدولي الذي كان العالم العربي هو ضيف الشرف فيه عام ٢٠٠٤م - فوجئت بصدمة لم أتوقعها، فرغم أنني أحمل جواز سفر دبلوماسي - كسفير سابق - وعليه تأشيرة دخول للولايات المتحدة الأمريكية لعدة سفرات صالحة لمدة خمس سنوات، وبرغم أنني دخلت بذات التأشيرة من قبل فإنني فوجئت بالسيدة المسئولة عن التعامل مع جوازات سفر القادمين إلى الولايات المتحدة الأمريكية تعاملني بجفاء واضح فور تصفحها لجواز سفري، ثم اقتادتنني إلى حجرة جانبية مليئة بمن أظن أنهم مهاجرون من بعض دول شرق إفريقيا ومنطقة «الكاريبى»، وعندما

تساءلت فى دهشة عن سبب ما يحدث، قال لى الضابط المسئول: عليك أن تنتظر دورك حتى تنتهى من كل هؤلاء فأسقط فى يدى وشعرت بإهانة لا مبرر لها، وطلبت منه أن أرى مسئولاً أكبر حتى أعرف تفسيراً لما يحدث معى، وبعد نصف ساعة جاءنى مسئول يبدو أنه المشرف على مجموعة موظفى الجوازات وأشهد أنه كان رقيقاً معى للغاية، وبعد تعامل استمر لعدة دقائق مع أجهزة الكمبيوتر اعتذر لى الرجل مبرراً ما حدث بتشابه فى الأسماء، ثم فوجئت بإعطائى إقامة لمدة ستة شهور، بينما كنت قد طلبت منهم ثلاثة أسابيع فقط، ولحظتها تذكرت ما يعانىة عشرات الآلاف من البشر فى مطارات العالم كل يوم خصوصاً من يحملون ملامح شرق أوسطية أو سحنة عربية.

### المشهد الثانى

كنت أتجول فى الشارع الخامس بمدينة «نيويورك» فرأيت متجرّاً كبيراً من عدة طوابق يبدو متخصصاً فى التحف القديمة فدخلته من قبيل الفضول والتسليية، ثم فوجئت أن مالكيه مصريان أحدهما مسلم والثانى يهودى ترك مصر فى نهاية عام ١٩٥٦م، ولقد اكتشفت أن الشريكين يملكان هذا المحل معاً منذ ثمانية وثلاثين عاماً، وأدهشنى كثيراً عمق الثقة المتبادلة ومتانة العلاقة بينهما، فالمصرى اليهودى ما زال يعيش مصر إلى حد الهوس ويأتى لزيارتها بين حين وآخر ويتولى إدارة المتجر فى غياب شريكه لأداء فريضة الحج أو السفر للعمرة، ولقد ذكرا لى أنهما يتناقشان فى السياسة طوال اليوم وينتقدان التطرف على الجانبين ولكن لا يستغنى أحدهما عن الآخر، كما شعرت بأجواء المحبة والود بين كل العاملين مع اختلاف دياناتهم.. وآمنت لحظتها عن يقين أن مصر كانت دائماً هى مصدر التسامح وملتقى الديانات ورافضة التعصب، يتعلق بها أبناؤها أينما ذهبوا وتغلب وطنيتهم على غيرها لأنهم يؤمنون بأن الدين لله والوطن للجميع، إنها تجربة للتعايش الإنسانى تستحق التأمل وتستدعى الاهتمام وتدفع نحو أمل البشرية فى استقرار عادل يجمع ولا يفرق، يوحد ولا يشتت.

### المشهد الثالث

حضرت إفطاراً رمضانياً ضخماً بأحد مساجد منطقة «جيرسى» بترتيب من القنصل العام المصرى ومساعدته، ولقد حضر الإفطار عدد ضخم من رجال وسيدات الجالية الإسلامية

الأمريكية، كما حضره عدد من رجال الدين المسيحي ورجال الدين اليهودي فضلاً عن بعض أعضاء الكونجرس بمجلسيه ممن يمثلون تلك المنطقة، وعدد من القضاة الأمريكيين ومسؤولي الإدارة ورجال الأعمال، ولقد ألقيت كلمة في ذلك الحشد الضخم حول التسامح الديني والصلوات الروحية والحضارية بين أتباع الديانات الإبراهيمية الثلاث، ولقد شد انتباهي شيوخ روح واضحة من الألفة الشديدة والصداقة القوية التي تربط الجميع، ورأيت كيف أن المساجد مفتوحة على مصراعها في رمضان وأضواؤها تسطع وهي تحتوى مئات المسلمين الذين يؤدون صلاة «التراويح» كل ليلة، لذلك فإنني أرى أن المواجهة الحقيقية ليست بين الإسلام والغرب ولكنها بين الاعتدال والتطرف، بين التسامح والتعصب، بين الانفتاح والانغلاق بغض النظر عن الديانات والأعراق والقوميات.

#### المشهد الرابع

التقيت الأسقف «ديفيد» كبير رجال الكنيسة القبطية في «نيويورك» وربما في أمريكا الشمالية كلها وذلك أثناء الإفطار الرمضاني الذي أشرت إليه في المشهد السابق، وكان مشغولاً بالإعداد لإفطار الوحدة الوطنية، وهي مبادرة بدأها قداسة البابا «شنودة» في كل الكنائس القبطية في الداخل والخارج منذ منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، ولقد دعاني الأسقف «ديفيد» لزيارة المقر البابوي القبطي في «نيويورك»، وهي مجموعة مبان رائعة على ربة عالية تضم كنيسة وناديا ومكتبة، ولقد كانت حفاوة الأشقاء الأقباط بنا كبيرة كما كان كرمهم زائداً، وشعرت بروح الوحدة الوطنية تطل من عيونهم وتبدو من كلماتهم، وتتأكد من تصرفاتهم حيث الوطن المشترك يبدو في الغربة وكأنه هاجس يستقر في الوجدان وشعور يتعمق في النفوس، بل إنني سمعت عن جمعية إسلامية قبطية في «نيويورك» تملك إمكانات مالية كبيرة وصلاحيات واسعة لتعزيز الشعور الوطني والدفاع عن القضايا العادلة لأمتنا العربية وشعبها المصري.

.. هذه مشاهد سريعة أهدف من ذكرها نقل صورة حية لما رأيت في تلك الرحلة التي خرجت منها باستنتاجات واضحة في ظل ضجيج الانتخابات الرئاسية الأمريكية، حيث رأى كثير من الأمريكيين أن المرشح الديمقراطي «جون كيري» كانت لديه الفرصة لولا أنه لم يتمكن من مخاطبة الشعب الأمريكي بالطريقة التي يريد في هذه الظروف التي تواصل فيها «واشنطن» حربها على الإرهاب ويستمر تورطها في العراق وينعدم دورها في فلسطين،

ولقد كان الأمريكيون يقولون صراحة أن «جون كيرى» محدث أفضل ولكنهم سوف يصوتون للرئيس «جورج دبليو بوش» حتى يستكمل المهمة التي بدأها وينتزع المخاوف التي زرعها، كما كانوا يرددون أن الولايات المتحدة الأمريكية بحاجة إلى استمرار رئيس قوى حتى ولو كان على خطأ، كما أن «كيرى» من ناحيته لم يتفهم جيداً أن المجتمع الأمريكى مجتمع متدين وأن قيم الأسرة تشكل فيه ركناً مهماً، ولقد رفع كثير من الأمريكيين - فى معرض التعليق على زواج المثليين - شعاراً يقول (إن الله خلق الإنسانية من آدم وإيف ولم يخلقها من آدم وستيف)! ولا شك أن الرئيس الأمريكى «جورج دبليو بوش» قد ضرب على أوتار معينة فى القيم الأمريكية واعتمد على رؤيته الدينية فضلاً عن المخاوف التي زرعها فى أعماق المواطن الأمريكى، والذي تفضل علينا «بن لادن» بتأكيدا من خلال شريطه قبيل الانتخابات، والذي تحدث فيه عن حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ودور تنظيم القاعدة فيه.

.. إن الولايات المتحدة الأمريكية فى ظنى قد بدأت «تتعافى» ولو ببطء من محنة قاسية، وتستعيد ثقتها فى غيرها وإن كان الطريق لا يزال طويلاً.



## فقر الخيال

إن الخيال هو الذى صنع الأمم العظيمة وصاغ الأفكار الكبرى ودفع الشعوب الناهضة والأفراد المرموقين عبر مسيرة البشرية ، وهو يختلف بدوره عن الوهم ويقترّب من مفهوم الرؤية البعيدة والتصور المستقبلي لرحلة الزمان والمكان. و«حق الخيال» منحة إلهية يستطيع بها المرء أن يتجول فى الدنيا وهو فى مكانه وأن ينتقد كل من حوله دون أن يدركوا شيئاً من ذلك. فقد يقف الصعلوك أمام السلطان وهو يرفضه فى ذهنه ويتخيل كل ما يريده له ، بينما لا يصيبه أذى ولا يناله من جبروت السلطان شيئاً. إن حق الخيال متعة رائعة ينعم بها الفقير والغنى والقوى والضعيف لا تفرقة بين الناس فى ذلك ، فكلهم سواء أمام شريط الذاكرة أحياناً وملف الحاضر أحياناً أخرى ورسالة المستقبل أحياناً ثالثة ، ولا يميز بين الجميع إلا القدرة على تحويل الحلم إلى علم والخيال إلى حقيقة وذاكرة الماضى إلى استشراف للمستقبل ، ولو بحثنا فى تاريخ العباقر وسيرة المهوبين وتجارب المجتمعات الناجحة لوجدنا أن الخيال الثرى هو الذى كان دافع الإنجاز الكبير والتفوق الكاسح. ولو تأملنا قليلاً فى ذلك وأمعنا النظر فى هذه الحقيقة فإننا نقدم بعض الأمثلة على مستوى الجماعات والأفراد ، فنحن نؤمن بأن تاريخ الكوكب الذى نعيش فيه هو تاريخ الأفكار الضخمة وتأثير القيادات الملهمة فى مجالات الفكر والسياسة والعلم والأدب والفن. وسوف نستعرض عبر السطور التالية نماذج للمحاور الأساسية والنقاط المفصلية فى التاريخ الحديث للفكر والعلم معاً ، ونحن لا نحلق بذلك فى آفاق فلسفية ولكننا نريد التأكيد على قضية «الرؤية الغائبة» التى جعلناها عنواناً وموضوعاً لواحد من أهم كتبنا ، أصدرناه منذ سنوات لكى ندلل على حالة الفقر فى الخيال التى أصابتنا بنوع من قصور النظرة أدى إلى توالى النكسات وفقدان الوعي وضعف الروح ، وسوف نكتشف أن الماضى وراء السياسات قصيرة المدى والرؤى المجزأة التى تصدر عن خيال فقير أقرب إلى الوهم منه إلى التصور الواقعى لغد الأمة قد أصابنا بما نحن فيه ، وهذه نماذج من الإيدولوجيات التى أثرت فى مجرى التاريخ والاكتشافات التى غيرت مسيرة الحياة والأفراد الذين بدأت بهم مراحل جديدة فى رحلة الزمان :

إن الإيدلوجية التي فرضت نفسها على العالم فى القرنين التاسع عشر والعشرين وانطلقت منها أنظمة كانت ذات تأثير ضخم فى شكل العلاقات الدولية هى النظرية «الماركسية» التى أسس لها «كارل ماركس» و«فريدريك إنجلز» وقاد التطبيق الأول لها فى الاتحاد السوفىيتى السابق «فلاديمير لينين» وهى نظرية تعبر عن التيار المادى فى أوروبا الحديثة، كما أن مضمونها هو انعكاس طبيعى للثورة الصناعية التى تولد عنها صراع طبقى بين القوى الاحتكارية صاحبة رأس المال والقوى العاملة التى حرمت من «فائض القيمة» الذى يمثل الفارق بين ما يستحقون وما يحصلون عليه بالفعل، ولقد أدت تلك النظرية بتداعياتها المختلفة إلى آثار بعيدة فى الفكر الإنسانى المعاصر، فتأثرت بها نظم وعانت منها شعوب لأنها قضت على الحافز الفردى وقتلت المشروع الخاص، ولكنها تبقى - برغم ذلك - رصيذاً فى ضمير الإنسانية للتدليل على تحويل الفكرة مهما كانت إلى واقع طويل المدى.

لا نكاد نعرف فى التاريخ الحديث حركة سياسية ربطت بين الخيال والواقع وانتقلت من الحلم إلى الحقيقة مثلما هو الأمر بالنسبة للحركة «الصهيونية»، التى بدأت إرهاصاتهما بالمرور على قيادة «نابليون» وأروقة «محمد على» ثم البلاط العثمانى وصولاً إلى مؤتمر «بازل»، عندما التقى الآباء الصهاينة لوضع الملامح الأساسية لوطن قومى يجرى اغتصابه فى فلسطين العربية.. وأنا ممن يظنون أن تاريخ الحركة الصهيونية يمثل أكبر تجسيد للرؤية بعيدة المدى والتعامل الناجح مع الخيال الثرى، والذين يتابعون مراحل تطور الدولة العبرية يدركون عن يقين أنها ولدت بعيدة عن فقر الخيال قريبة من مفهوم الحلم الجماعى وتوظيف الرؤية الواقعية على نحو غير مسبوق.

عندما بدأ الإمام الشهيد «حسن البنا» دعوته فى مدينة الإسماعيلية عام ١٩٢٨م فإنه كان يحدد بإدراك كامل رؤية بعيدة المدى لمفهوم الإسلام السياسى تحت شعار الدعوة «الله أكبر والله الحمد»، بينما الهدف السياسى يخفى وراء تلك الرؤية الدينية التى ملأت الأسماع وشغلت الدنيا حتى اليوم، وقد جرى على نهجه دعاة من أمثال «سيد قطب» و«أبو الأعلى المودودى» وكلاهما يعزز مفهوم «الحاكمية» فى الإسلام، فضلاً عن فروع الأصولية الدينية التى خرجت من رحم حركة الإخوان المسلمين.. لذلك فإننا نقرر بحق أن تلك الحركة - بما لها وما عليها - هى نموذج آخر للتصور البعيد والخيال الواسع المؤثر فى الشعوب الإسلامية بل والمجتمعات الدولية.

إن «تشارلز داروين» عندما سرح بخياله متأملاً في قضية النشوء والارتقاء ليخرج على الإنسانية بنظريته التي اختلفت الآراء حولها وتباينت النظرة إليها، فإنه قد فعل ذلك من خلال تأمل طويل في محاولة لحل لغز الحياة الذي بدأ مع الانفجار الهائل عند ميلاد الكون، وحينما اعتبر «داروين» القردة مرحلة من مراحل تطور الإنسان فإنه دخل تلقائياً في مواجهة مباشرة مع التفسير الذي قدمته الديانات السماوية الثلاث في هذا السياق، ومع ذلك تبقى الداروينية واحدة من أخطر النظريات العلمية التي أثارَت جدلاً كبيراً ما زال ممتداً حتى اليوم.

إن حركة المقاومة السلبية والفلسفة العميقة التي تبناها المهاتما «غاندى» في رحلة التحرير الطويلة بدءاً من «جنوب إفريقيا» وصولاً إلى بلده العظيم «الهند»، إنما ولدت هي الأخرى من خيال ذلك الرجل النحيل الجسد الذي لم تكن تستره إلا قطعة قماش تعبر عن الزهد الهندوكي الذي يعطى أصحابه قوة روحية هائلة، تمكنهم من اجتياز الطرق الوعرة وقطع المسافات الطويلة من أجل هدف وضعوه أمامهم وحلم تخيلوه لأممهم، لذلك سوف تظل «الغاندية» واحدة من أبرز فلسفات القرن العشرين إن لم تكن أبرزها على الإطلاق.

إن «الفرويدية» التي انطلق بها صاحبها «سيجموند فرويد» من جلساته في مقهى «ليندمان» بالعاصمة النمساوية سوف تظل هي الأب الشرعي للتحليل النفسي مهما اختلف حولها العلماء والأطباء، ولا شك أن مبالغته في التعويل على العامل الجنسي تفسيراً لتطور الإنسان ومراحل حياته هي مركز الخلاف بين مؤيديه ومعارضيه، ولكنه يبقى علامة مهمة على طريق اكتشاف النفس البشرية وسير أغوارها.

إن «أتاتورك» أبا تركيا الحديثة هو رائد العلمانية على أنقاض سلطنة آل عثمان، حتى أصبحت تقليداً أصيلاً منذ أن تبني الجيش التركي مبادئ ذلك الضابط القادم من إقليم «سالونيك» لينهي الخلافة الإسلامية، مؤكداً قدرة خياله البعيد الذي صنع تركيا الحديثة برغم كل ملاحظتنا على نشأته ودوافعه وغاياته.

إذا كانت البشرية تصنف «أدولف هتلر» باعتباره أكبر مجرم في التاريخ المعاصر بجنايته الكبرى على الأمم الأوروبية والعالم بأسره، وتسببه في قتل عشرات الملايين من الضحايا في الحرب العالمية الثانية، نتيجة لذلك الهوس الفكري والسياسي الذي اعتمدت عليه «النازية» كنتاج للتداخل العنصري بين القومية والعرقية في وقت واحد، فإننا لا ننكر أن «هتلر» قد امتلك خيالاً واسعاً وإن كان شريراً كما كانت له أحلامه المدمرة لعصره وأمتة معاً.

إن «شارل ديغول» هو نمط فريد من القادة وطراز خاص من الزعماء قاد حركة التحرير الفرنسي ضد الاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية، كما أنقذ فرنسا من ورطة احتلال الجزائر حتى أصبحت الجمهورية «الرابعة» هي واضعة التقاليد لسياسة فرنسا الخارجية وشخصيتها المستقلة نسبياً حتى اليوم، ولقد امتلك ذلك الجنرال الفرنسي رؤية بعيدة وقدرة رائعة على بلورة شخصية فرنسا الحديثة.

إن المرأة الحديدية رئيسة وزراء بريطانيا السابقة «مارجريت تاتشر» قد لعبت هي الأخرى دوراً مهماً في تشكيل السياسة البريطانية والاقتصاد القومي للمملكة المتحدة، وهي لا تقل تأثيراً في المجتمع البريطاني عن تأثير رجل بضخامة «ونستون تشرشل» ودوره في الحرب العالمية الثانية، وسوف تظل تلك السيدة التي أصبحت الآن - بحكم العمر وضغوط الزمن - عاجزة عن النطق السليم، بعد أن كانت حديث الدنيا ومركز اهتمام الإعلام صاحبة رؤية للنهوض بوطنها على نحو يعترف به الجميع.

.. هذه نماذج لبشر تملكوا ناصية الخيال وعرفوا كيف يحلمون وهم يقظي، وكيف يقرأون المستقبل، ويتنبئون بالغد، تضاف إليهم قافلة كبيرة عبر التاريخ البشري كله من أمثال «الإسكندر الأكبر» و«نابليون بونابرت» و«محمد علي» و«عبد العزيز آل سعود» و«جمال عبد الناصر» و«أنور السادات»، وكلها قيادات رحلت عن عالمنا، ولكن بقيت آثارها لكي تؤكد أن الرؤية الثرية والخيال الواسع هما مقدمتان للإنجازات الضخمة والقرارات العظيمة والأفكار الكبرى، أما «فقر الخيال» فهو الأب الشرعي للهزائم والانتكاسات مع الركود وغياب القدرة على المبادرة والتغيير والإصلاح.



## ارتباطات دينية أم تحالفات سياسية؟!

لدى شك كبير مرة أخرى فى أن الدين عامل أساسى فى العلاقات الدولية المعاصرة.. نعم.. قد يستخدمه البعض ولكن لخدمة مصالح معينة وأهداف محددة، ذلك أن المواقف الدينية يجرى توظيفها لخدمة أغراض سياسية، فلست أظن أن الصراع الذى يدور فى عالم اليوم هو حرب مقدسة بين الأديان وإن كنت لا أقلل فى الوقت ذاته من شأن نظرية صراع الحضارات، فالعامل الثقافى يلعب دوراً رئيسياً فى تكييف العلاقة بين المجتمعات المعاصرة، فأنا لا أستطيع أن أقول - مثلاً - إن المسلم المصرى أقرب إلى المسلم الإندونيسى منه إلى شريك الوطن ورفيق التاريخ وصنو الحياة القبطى المصرى؛ فالثقافة المشتركة فى رأى تحدد انسجاماً وامتزاجاً أقوى بكثير من وحدة روحية بعيدة تفتقر إلى الشراكة الإنسانية.

إننى أريد أن أقول صراحة إن القوى العظمى فى عالم اليوم لا تتصرف من منطلقات دينية وإن اعتمدت على ادعاءات تنطلق من قواعد روحية أحياناً، ولو أخذنا السياسة الأمريكية كمثال فسوف نجد أنها قد تعاونت مع التيارات الإسلامية طوال سنوات الحرب الباردة وارتبطت معها فى تحالف ضمنى فى مواجهة الاتحاد السوفييتى السابق والأنظمة الشيوعية التى سادت فى القرن الماضى، ثم ها هى تعود اليوم لتستبد بها الهواجس وتسيطر عليها المخاوف من كافة الجماعات الإسلامية بل وترتبط بين معظمها وبين الإرهاب الدولى كظاهرة أممية.. ويهمنى هنا أن أسجل عدداً من الملاحظات التى تؤكد أن السياسة والمصالح تسبقان الدين والعقائد فى العلاقات الدولية المعاصرة، وأهم هذه الملاحظات الشواهد التالية:

أولاً: إن العلاقات الأمريكية - التركية هى نموذج لتحالف المصالح برغم اختلاف الجذور الحضارية والأسس الدينية والمنطلقات الثقافية، فدولة «أتاتورك» تمثل نموذجاً للعلاقة الوثيقة مع الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات طويلة فى إطار حلف الأطلنطى تارة وفى إطار المصالح المشتركة فى أوروبا ومنطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط تارة أخرى، بل إننى لاحظت من زيارتى لدولة «قبرص» حجم

المرارة التي يشعر بها القبارصة اليونانيون تجاه الموقف الأمريكي منهم والداعم بشكل كبير للسياسة التركية، والذي تجلى في خطة الأمين العام للأمم المتحدة «كوفي أنان» التي طرحت للاستفتاء، فرفضها اليونانيون ووافق عليها الأتراك في محاولة أمريكية غير متوازنة لتوحيد الجزيرة بصورة لا تختلف كثيرًا عن التصور التركي لمستقبلها، بل إننا نلاحظ دائمًا أن خصوصية العلاقات التركية الأمريكية كانت هي العنصر الضاغط على الاتحاد الأوربي، ليفتح أبوابًا للتفاوض مع «أنقرة» من أجل تحقيق حلمها التاريخي في أن تكون عضوًا في الاتحاد الأوربي ولو في المؤخرة بدلاً من أن تكون قوة قائدة في الشرق الأوسط ولو في المقدمة! ولذلك فإن العلاقات التركية - الأمريكية هي نموذج لتوظيف المصالح دون اعتداد بالخلفية التاريخية أو الأرضية الدينية.

**ثانيًا:** لعننا لا نزال نتذكر كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية قد ضربت «الصرب» وهم مسيحيون أرثوذكس لصالح الأغلبية المسلمة في إقليم «كوسوفا»، ولم تتخذ «واشنطن» في ذلك الوقت الدين معيارًا لصنع سياستها على حساب مصالحها، فالمهم لدى «واشنطن» دائمًا هو أن تكون هناك نظم طيبة متعاونة بغض النظر عن مصداقية ديمقراطيتها بل وشرعية وجودها.

**ثالثًا:** لقد كانت الثورة الإسلامية في «إيران» هي نقطة التحول في العلاقة بين الإسلام والولايات المتحدة الأمريكية وربما الغرب عمومًا، لأنه عندما اصطدمت المصالح جرى فك الارتباط سريعًا بين التيار الإسلامي والسياسات الأمريكية، وهو أمر يكشف عن الحقيقة التي نتحدث عنها، ويؤكد ما نذهب إليه من أن الاهتمام منصب بالدرجة الأولى على من يستطيعون اتخاذ القرار الرشيد والمواقف الصحيحة في الوقت المناسب، وليس الجانب العقائدي هو المؤثر الأساسي في سياسات القوى الكبرى إنما المصالح هي الفيصل دائمًا.

**رابعًا:** إن تنامي الظاهرة الإسلامية في الشرق الأوسط في العقود الثلاثة الأخيرة هو الذي صنع صدام المصالح قبل الحديث عن صدام المعتقدات، فالإسلام السياسي الذي بدأ بحركة «الإخوان المسلمين» كان يمضي في طريقه منسجمًا مع القوى الغربية مباركًا للأنظمة الملكية مطالبًا فقط بالدعوة الإسلامية وتطبيق الشريعة على أهلها،

ولكن الأمر تجاوز ذلك عندما اختلطت التيارات الإسلامية المتباينة من فكر «أصولي» بدأ من مصر إلى تيار «وهاي» التقى به في الجزيرة العربية والخليج، فضلاً عن تصاعد ظاهرة العنف بشكل غير مسبوق لم يقتصر على المجتمعات الإسلامية وحدها ولكنه تجاوز ذلك ليصبح ظاهرة عالمية تهدد الأمن والسلم الدوليين.

**خامساً:** عندما ارتبطت حركة المقاومة الفلسطينية بالمشروع الإسلامي فإن تطوراً ضخماً طرأ على رؤية الآخر لها، فالنضال الوطني من أجل الاستقلال والحريّة كان أمراً طبيعياً ثم جاء اختلاط المقاومة ضد الاحتلال بالأصولية الإسلامية ليصنع حاجزاً جديداً يضرب مصالح بعض القوى الدولية والإقليمية مباشرة؛ ولعل نموذج العمليات الاستشهادية هو خير دليل على ذلك، بل إن التمرد «الكشميري» ضد «الهند»، و«الشيشاني» ضد «روسيا الاتحادية» بالإضافة إلى سنوات الصراع في «البوسنة» و«الهرسك»، أقول إنها كلها قد تركت بصمة دينية على تلك الصراعات ومزجت بين الدوافع العقائدية وبين المصالح الدولية.

.. من هذه الملاحظات الخمس يمكننا أن نقول: إن الجانب السياسي في العلاقات الدولية والمرتبط بالمصالح الاقتصادية هو الذي يحدد في الغالب أين تقف القوى المختلفة من المشكلة الواحدة، بل إنني ما زلت أتذكر تصريحاً للسيد «دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع الأمريكي عام ٢٠٠٣م عندما قال: إن بلاده لا تمنع في قيام حكومة إسلامية في العراق شريطة ألا تكون تلك الحكومة على النمط الإيراني، أي إن وزير الدفاع الأمريكي يريد لها إسلامية طيبة تتجاوب مع السياسة الأمريكية ولا تمارس التحريض ضدها، بل إننا ما زلنا نرصد اهتماماً متزايداً من جانب الدوائر السياسية سواء في «واشنطن» أو في عواصم دولية أخرى بقضايا الوحدة الوطنية والاندماج السياسي، مع متابعة دقيقة للظاهرة الإسلامية واتصالات مستمرة قد تصل إلى حد الغزل المتبادل مع التيار الإسلامي المعتدل، الذي ينبذ العنف باعتباره قوة سياسية موجودة لا يمكن إنكارها.

إنني أريد أن أقول بهذه المناسبة إن الولايات المتحدة الأمريكية تفضل التعامل مع الأنظمة الطيبة والشخصيات المتعاونة ولا يعنيه بعد ذلك إن كان النظام ديمقراطياً أو كانت الشخصية نزيهة، فالمهم هو إثبات الولاء والتعاون الدائم من أجل الحفاظ على

مصالح «واشنطن». أما التحريض على سياساتها والتعبئة الشعبية والإعلامية ضدها فهي أمور تقلق القوة الأعظم وتدعوها إلى اتخاذ مواقف أكثر تشدداً وأقل تفهماً وأسرع تأثيراً.. لذلك فإننى أقول لمن نسوا: إن الولايات المتحدة الأمريكية قد وقفت عام ١٩٨١ م موقفاً سلبياً فى المواجهة بين الكنيسة القبطية والرئيس الراحل «أنور السادات»، عندما اعتقل الأخير معظم الرموز السياسية فى بلدنا وأضاف إليهم قيادات الكنيسة وعلى رأسها البابا «شنودة» الثالث الذى اعتصم بالدير، فإن الولايات المتحدة الأمريكية لم تضغط على «السادات» الحليف القوى والزعيم المحبوب لدى الغرب والولايات المتحدة الأمريكية وغفرت له ما فعل.. لذلك فإننى أقول إن أية محاولة للاستقواء بالأجنبى هى محاولة تدعو للسخرية لأن الأجنبى يحتكم إلى مصالحه الحقيقية ولا يحتكم إلى عقيدته الدينية مهما ادعى غير ذلك أو تظاهر به. فالوطن فى النهاية يجب أن يحل مشكلاته ذاتياً ويواجه الخلافات مع شركاء الحياة فى إطار الأسرة الواحدة، أما الأجنبى فالملتحف به عار ولو بعد حين، ولحسن الحظ فإن أقباط مصر قد تنبهوا لهذه النقطة منذ البداية وعاشوا حياة الوطن بما فيها وما عليها ورفضوا دائماً حماية الأجنبى أو الاعتماد عليه إلا من استثناءات قليلة لعناصر شاردة معظمها من الطيور المهاجرة وليست من الكيانات الثابتة.. إننى أريد أن أقول فى ختام هذه السطور: إن العبرة فى العلاقات الدولية والصراعات الإقليمية تكون دائماً بالمصالح والمكاسب والإستراتيجيات وليست أبداً بالعقائد والملل والديانات.



## الإصلاح.. المفترى عليه!

أضحى الإصلاح تعبيراً يتردد على ألسنة الجميع بمناسبة وبغير مناسبة وكأنما أصبح هو كلمة السر التي تحمل أسباب الخلاص من كل أزمة والمخرج من كل مشكلة، لقد أصبحت تلك العبارة مظلومة بحق، حيث تلوكها الألسنة بلا هدف وتكررها البرامج السياسية والخطط الاقتصادية بإسراف لا يزيد كثيراً على تكرار كلمتي الحرية والديمقراطية في خطاب التنصيب الذي ألقاه الرئيس الأمريكي الثالث والأربعون في بداية الفترة الثانية من رئاسته للقوة العظمى الوحيدة في عصر «الباكس أمريكانا»، ولقد أصبح تعبير الإصلاح مطروحاً في العامين الماضيين منذ ألقى وزير الخارجية الأمريكي السابق «كولين باول» محاضراته الشهيرة حول التغيير والديمقراطية في الشرق الأوسط، وبالمناسبة فليس منا من يرفض الإصلاح منهجاً لحياة أفضل وأسلوباً لتحقيق غايات إنسانية وطموحات وطنية، ولكن السؤال المطروح هو: عن أي إصلاح نتحدث؟! وهل الإصلاح طرح عام لا سند له من الواقع ولا مقومات لديه من الظروف المحيطة؟!!

إننا نسجل بهذه المناسبة أن الإصلاح تعبير ارتبط بحركة التحديث في تاريخ مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ولم يكن تعبيراً لقيطاً أفرزته الأحداث الدولية الأخيرة بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م. فنحن نتحدث في مصر عن «رافعة الطهطاوي» كرائد للتطوير والإصلاح الفكري، ونتحدث عن «محمد عبده» كرائد للوعي والإصلاح الاجتماعي. فمفهوم الإصلاح ليس مفهوماً وافداً علينا ولكنه مرتبط بنا، نابع من حاجتنا، متأثر بالخصوصية القومية والملاحم الذاتية للهوية، لذلك نقدم هنا عدداً من الاعتبارات المرتبطة بمفهوم الإصلاح:

أولاً: الإصلاح عملية شاملة قد تكون تدريجية على مراحل ولكنها لا تقبل التجزئة فهي عملية متكاملة لها أبعاد سياسية وأخرى اقتصادية وغيرها ثقافية؛ لذلك فإن محاولة الفصل بين الإصلاح الاقتصادي والإصلاح السياسي هي محاولة لا تستند على أساس. فالديمقراطية هي حارس التنمية، وهناك شعوب تتقدم سياسياً ولكنها لا تحقق القدر نفسه اقتصادياً مثلما حدث في روسيا الاتحادية بعد سقوط الاتحاد

السوفيينى، فضلاً عن أن بلدًا مثل السودان هو نموذج تقليدى لهذا النمط من التفاوت بين الإصلاحين السياسى والاقتصادى.

ثانيًا: إن الإصلاح لا يعنى مجرد تحديث البنية الأساسية أو إدخال عناصر التقدم التكنولوجى واستخدام آليات عصرية لم تكن معروفة من قبل وأساليب تقنية لم تكن معتمدة من قبل، بل الإصلاح رؤية طويلة المدى تقوم على صحوه عقلية ذات عناصر متجانسة، لا تقف عند الإطار المادى أو الهيكل البنىوى، ولكنها تنسحب أيضًا على عملية التغيير الشاملة فى القيم السائدة والتقاليد المرعية والأفكار المسيطرة.

ثالثًا: إن الإصلاح لا يقوم به إلا الإصلاحيون، وعندما كتب الأديب المصرى الراحل «أحمد أمين» كتابه عن زعماء الإصلاح، فإنه كان يفترض أن جوهر الشخصيات المحورية التى كتب عنها هو وجود ذلك القاسم المشترك بينها والتوحد فى مفهوم الرؤية الاستباقية لاستشراف المستقبل، وقد يكون من الأسباب التى تحول دون تحقيق التقدم المطلوب وفقًا لبرنامج الإصلاح المنشود هو غياب تلك الرؤية وافتقاد القدرة على التنظير للغد.

رابعًا: إن أخطر ما يتعرض له الإصلاح هو أن يتحول إلى شعار مطاط - مثلما يحدث الآن - حتى يفقد معناه بسبب تكرار ذكره والحديث عنه فتميع القضية وتتداخل الأمور وتختلط الأوراق، فالإسراف فى استخدام تعبير الإصلاح فى السنوات الأخيرة كاد يفقده مضمونه الحقيقى ومعناه الصحيح.

خامسًا: إن الكل يتحدث عن إصلاح الأنظمة والشعوب، الولايات المتحدة ودول الشرق الأوسط.. من يناهزون إليه ومن يحاربونه فى الخفاء فالكل يتحدث عنه بغير استثناء، ولكن هناك بعض الأنظمة التى تسعى لإجهاضه وخطف شعاره والمزايدة عليه، بحيث يصبح فى النهاية شكلاً بغير مضمون وشعارًا بلا هدف وكلمة جوفاء ليس لها دلالة محددة أو مرجعية واضحة.

.. هذه اعتبارات قدمناها لإثبات حقيقة مؤداها أن الإصلاح عملية معقدة ومتشابكة لا تقف عند حدود معينة ولا ترتبط بنظام بذاته، ولكنها تعتمد على ذلك المثلث الذهبى الذى يقوم على تطوير التعليم وتصدير الثقافة وتوطين التكنولوجيا، وكل محاولة للحيلولة دون

ذلك هي عملية معادية للجوهر الحقيقي للإصلاح، ونحن نظن أن الإصلاح عملية عقلية تدور في رأس الوطن وتبدأ بتغييرات جذرية وإن كانت تدريجية، وتقبل عن رضا بالتعامل مع الآخر والتفاعل المستمر الذى يدفع إلى الأمام، ولا يمكن أن نناقش الاعتبارات السابقة دون أن نطرح وجهة نظرنا فى المقدمات الطبيعية لعملية الإصلاح الجذرية فى مجتمعاتنا العربية، وهى تقوم أساسًا على مدى نجاح عملية فك الاشتباك بين العناصر الخمس التالية :

- السياسة والدين.. الشرق الأوسط الكبير بمحتواه العربى والإسلامى يحتاج إلى عملية واعية تمنع تسييس الدين وتعطى «ما لله لله وما لقيصر لقيصر»، ولسنا بذلك دعاة توجه علمانى أو أصحاب نزعة لا تتحمس لدور الدين، كما أننا نعتزف بأن الشريعة الإسلامية من الثراء والرحابة بحيث تقدم نموذجًا فى الحكم وأسلوبًا فى الحياة، ولكننا نرى فى الوقت ذاته أن تجارب المسلمين فى هذا السياق لا تشجع - فى ظل الظروف الدولية الحالية - على مثل هذا الطرح، وندعو الأمة الإسلامية لأن تحسم أمرها وتحدد خيارها فى عملية فك اشتباك مؤمنة وواعية بين الدين والسياسة خصوصًا فى منطقة تلعب فيها القيم الروحية دورًا شديد التأثير بالغ الحساسية، فضلًا عن أن حجم الإنفاق الدينى فى بلادنا يتجاوز الحدود التى شرعها الله بل يتحول إلى نوع من الإسراف والتظاهر.
- السلطة والثروة.. لقد اختلطت تاريخيًا العلاقة بين الإمارة والتجارة، فتاريخ الدولة الإسلامية العربية يدل بوضوح على الخلط بين المال العام والخاص، وهى سمة لا تنفرد بها المجتمعات العربية الإسلامية وحدها ولكنها شائعة فى المجتمعات التى تفتقر إلى المصادقية السياسية والشفافية الاقتصادية والمحاسبة المالية، ونحن ممن يرون أن من دعائم الإصلاح ضرورة الفصل بين الملكية والحكم، أى بين من يملكون ومن يحكمون؛ لأن زحف الثروة على السلطة يشكل فى النهاية جماعة ضغط من طراز خاص تجعل القرار السياسى أسيرًا لمصالح البعض وأهداف البعض الآخر.
- الأغلبية والأقلية.. وأقصد بذلك العلاقة بين الأغلبية العددية والأقلية العددية أيضًا؛ لأن عالمنا العربى الإسلامى لديه درجة من التجانس الذى يجعل الحديث عن اختلافات عرقية أو دينية أو عقائدية حديث بلا معنى، فالعربية هى لسان المنطقة بأغلبيتها وأقليتها، والإصلاح ينطوى على درجة من الرعاية التى تقدمها الأغلبية للأقلية بحيث

تحميتها وتحرص عليها وتحيل التعددية إلى نعمة وليست نقمة، فالأقليات العددية فى العالم العربى الإسلامى تحتاج إلى نظرة جديدة تواكب روح العصر وظروف ما جرى فى السنوات الأخيرة.

- الماضى والحاضر.. لا يمكن أن نظل أسرى الماضى - بكل ما له وما عليه - نتغنى بأمجاده ونبكى على أطلاله ونترك الحاضر بمشكلاته ونهاجر من زماننا إلى عصور سبقتنا، بينما الأولى بالهجرة هو أن نتقدم نحو المستقبل نفكر فيه ونتعايش معه ونبشر به، ولعل قضية الديمقراطية التى تعبر عن الحرية السياسية بأوسع معانيها وتشير إلى دولة القانون فى أوضح صورها هى خير دليل على أهمية ما يسعى إليه الإصلاحيون من فك الاشتباك بين الماضى والحاضر.

- المؤسسة والفرد.. إن أخطر ما يواجه المجتمعات النامية عمومًا والشرق أوسطية خصوصًا هو طغيان الفرد على المؤسسة بحيث تذوب فى كيانه وتختفى وراءه، بينما المؤسسة هى الأصل الباقى والفرد هو الزائر العابر الذى لا يجب أن يستحوذ على منصب أو يتمسك بموقع أو يتوحد مع سلطة، وذلك ينطبق على كافة مؤسساتنا الفكرية والثقافية والتعليمية وكذلك سلطاتنا التشريعية والقضائية والتنفيذية، بل ويمتد بشدة وقوة ليصبح مرضًا ينخر فى عظام الجهاز الإدارى للدولة... وأنا ممن يعتقدون أن الإصلاح الإدارى غاية تسبق غيرها وهدف نتطلع إليه من أجل نسف ذلك الركاب الضخم من الروتين العفن والبيروقراطية المتوارثة، حتى يتحقق توازن حقيقى بين المؤسسة والفرد على نحو يضمن ثبات القيم الوظيفية والتقاليد المهنية والدورة الصحية للجهاز الإدارى السليم.. إنها اعتبارات نسوقها ومعايير نتحدث عنها وكلها تشير إلى ذلك الشعار العظيم الذى أصبح كالحق الذى يراد به باطل أو المظلة التى تحجب الضوء الحقيقى، إنه الإصلاح.. ذلك المفترى عليه!



## استحقاقات تاريخية

تورقنى كثيراً قضية ذات بعد إنسانى تدور حول الرموز التاريخية لحضارتنا العربية خصوصاً فى مصر، وما ناله البعض أكثر مما يستحق وما افتقده البعض برغم أنه يستحق، والذى دعانى إلى الكتابة فى هذا الموضوع الآن أنه صدر لمؤرخ مصرى مرموق مؤخراً كتاب تعرض فيه لفترة حكم رئيس سابق، وتحدث عن أوضاع الدرجات العلمية فى الجامعة ومحاولات الترغيب والترهيب التى تعرض لها، كما أن أكبر كاتب سياسى معاصر قد تعرض هو الآخر للحياة الخاصة للملكة الراحلة «فريدة» فى ثنايا حديثه عن تحليل بعض العقد فى شخصية الملك الراحل «فاروق»، الذى ما زلنا نصر على أنه لم يكن حاكماً خائناً ولكنه كان ملكاً فاسداً.

ولقد دفعت بى تلك الأطروحات المتعاقبة إلى نوع من التأمل فى عدد من الاستحقاقات التاريخية، وأنا أعلم بداية أن المساس بالرموز هو ولسوج لطريق محفوف بالمخاطر مليء بالأشواك.. فأنا أعتقد مثلاً أن «محمد على» - الذى يجب أن نحتفل بالثموية الثانية لتولييه الحكم هذا العام احتفالاً يليق بدوره - لم ينل استحقاقه التاريخى المناسب، فقد حول مؤرخو الثورة المصرية «ساكن الجنان» «محمد على الكبير» إلى مجرد حاكم أجنبى وافد استخدم مصر كضيعة له ولأولاده من بعده، وهو منطلق لا يخلو من الافتراء ولا يبرأ من ظلم، كما أن الخديو «إسماعيل» - المفترى عليه - قد ضاعت نواياه الطيبة وتصميمه على تحديث مصر فى غمار الديون الأجنبية، ثم حمى التخوين التى لا تلحق فى رأى إلا بابنه الخديو «محمد توفيق» الذى فتح بوابات مصر أمام الاحتلال البريطانى وبطش بـ «عرابى» والعرابيين بطشاً شديداً، كما أننى أضيف إلى ذلك أن الاستحقاقات التاريخية للأسرة العلوية لم تكن عادلة فى مجملها، فضاعت فى الزحام أسماء تستحق التقدير من أمثال «عمر طوسون» و«عباس حليم» و«يوسف كمال» و«محمد عبد المنعم»، فضلاً عن أن الخديو «عباس حلمى الثانى» قد ساير الحركة الوطنية لفترة دفع ثمنها من عرشه، بل إن الملك «فؤاد الأول» - برغم جهامته وعدم إلمامه باللغة العربية - قد قدم للمجتمع المدنى المصرى وللتعليم إسهامات مشهودة.

وسوف أستعرض أسماء بعض الشخصيات اللامعة فى مجالات السياسة والأدب والفن بل والرموز الدينية أيضاً، لكى أقول فى حقها ما أعتقد أنه صواب - وجل من لا يخطئى - فأنا أظن مثلاً وبعض الظن إثم - أن «مصطفى كامل» الذى مات فى الرابعة والثلاثين من عمره قد استفاد من ظروف رحيله المبكر واكتسب تعاطفاً شديداً باعتباره محامى «دنشواى» الأول و«صب مصر وشهيد غرامها» فنال قليلاً أكثر مما يستحق، أما «سعد زغلول» فقد أفادته الظروف كما لم يحدث لزعيم وطنى آخر.. وأنا أحسب بالمناسبة أن «مصطفى النحاس» أشد منه صلابة وأكثر تفانياً، برغم أنهما شريكا نضال وزعيما حزب واحد، أما «طلعت حرب» الذى يحمل اسمه شارع وميدان فى قلب العاصمة المصرية، فإننى أعتقد أنه قد نال أقل مما يستحق لأن ريادته الاقتصادية وفرادته الفكرية تضعانه فى موقع أعلى مما وضعنا فيه تمثاله! و«إسماعيل صدقى» «نمر السياسة المصرية» لم ينل حظه من التقدير لآرائه الجسورة وفكره المستنير وقدرته على استشراف المستقبل وسط ضباب الشعارات وفوضى العواطف، كذلك فإن الإمام «محمد مصطفى المراغى» شيخ الأزهر الأسبق يستحق تكريماً أكبر، كما أن الإمام «محمود شلتوت» لم يلتفت إليه الكثيرون خصوصاً فى دوره للتقريب بين المذاهب الإسلامية وإنصافه للشيعه «الاثنا عشرية»، أما البابا الزاهد راهب الصحراء «كيرلس السادس» فلم ينل على المستوى الوطنى ما كان يستحقه من تكريم وإجلال لظروف تتصل بدور الدين عمومًا فى العصر «الناصرى»، أما «محمد نجيب» فهو يقف مظلوماً فى إحدى حارات التاريخ، بينما يتربع رفيقه «عبد الناصر» و«السادات» فى موقعيهما اللائق فى أكبر ميادينهم.. وبالمناسبة فإننى أعطى كلا من الزعيمين الأخيرين استحقاقه التاريخى كاملاً، «فعبد الناصر» هامة قومية عالية وبطل ذو «كاريزما» من نوع خاص يقف فى مصاف التاريخ إلى جانب تلك الزعامات الضخمة التى كانت آثارها المعنوية أكثر من آثارها المادية، فهو نموذج من أبطال الأساطير «الهيلية» أكثر منه رئيساً دستورياً مسئولاً، أما «السادات» فهو ثانى «رجل دولة» فى تاريخ مصر بعد «محمد على» لأن مثله كان يعرف ما يريد ويجيد اللعب على التوازنات الدولية والمتغيرات الإقليمية، كما أن قدرة كل منهما - فى عصره - على المناورة السياسية هى أمر مشهود ومعترف به. ومن الذين أخذوا قليلاً أكثر من حقهم أيضاً أبو الدبلوماسية المصرية الدكتور «محمود فوزى» فأنا أسلم بأنه طراز رفيع للدبلوماسية التقليدى بكل مقوماته الكلاسيكية،

وقد كان ثانياً وزير خارجية لمصر الثورية بعد السيد «أحمد فراج طابع» الذي لم يمكث إلا شهراً قليلاً، ولكن د. «فوزى» لم يتمكن للأسف من توظيف إمكانياته في خدمة الثورة المصرية، ربما لأنه آثر السلامة في تعامله مع الضباط الشباب أو لأن المساحة التي كان يشغلها المستشار السياسى الأول للرئيس «عبد الناصر» الأستاذ «هيكل» لم تترك للدكتور «فوزى» هامشاً للحركة أو قدرة على إبداء الرأى، حتى ترددت قصة مؤداها أنه فى المرة التى طلب منه «عبد الناصر» المشورة فى موقف معين أحال الدبلوماسى المخضرم إجابته إلى إلهام الزعامة الناصرية وفرادة القيادة السياسية! وأنا هنا لا أتجاهل إطلاقاً على الدكتور «فوزى» فأنا أعرف جيداً فضله على جهاز الدبلوماسية المصرية ومكانته لدى تلاميذه ومعاصريه.

وإذا كان لنا أن نتطرق إلى مجال الأدب فإننى أظن أن «توفيق الحكيم» يستحق أكثر مما أخذ، و«طه حسين» و«العقاد» نالا بالضبط استحقاقهما العادل. وفى مجال الفن فإننى أظن أن «يوسف وهبى» رائد المسرح المصرى كان مجتهداً أكثر منه موهوباً، بل إن قوة شخصيته وطريقة حديثه وارتفاع صوته وطول قامته، كانت كلها بدائل فنية لتغطية فقر الموهبة وغياب مرونة الحركة على المسرح، كما أن «عبد الوهاب» و«أم كلثوم» و«عبد الحليم حافظ» قد نالوا ما يستحقون، أما «فريد الأطرش» و«كارم محمود» و«محمد قنديل» فقد انتقص التاريخ من إمكانياتهم بسبب ظروف العصر الذى عاشوا فيه والرموز الكبيرة التى حالت بينهم وبين الضوء الساطع.. بقى أن أقول إن الإمام «محمد عبده» يحتاج إلى تكريم خاص فى هذه الظروف بالذات، فقد كان ذلك الداعية المستنير والإصلاحى الكبير علامة مضيئة فى عصره لا لأنه دعا إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى فحسب، ولكن أيضاً لأنه امتلك أدوات التواصل الإنسانى والانفتاح على الآخر، فكانت له مثلاً مراسلات مع الأديب الروسى الكبير «تولستوى»، كما كانت جولاته ووصلاته فى «باريس» مثار احترام وتقدير، وإذا كنا نتحدث الآن عن الإصلاح الشامل فإن «محمد عبده» يظل القدوة والنموذج والمنار الباقى.

وإذا تحركنا قليلاً إلى الصعيد العربى فإننى سوف أختار نموذجين من بلد عربى واحد هو «لبنان» الشقيق محاولاً رد الاعتبار لـ «أنطون سعادة» معتبراً تأسيسه للحزب القومى السورى، ودعوته لدولة الهلال الخصيب بنجمته فى «قبرص» هى دعوة لا تتعارض مع

القومية العربية بل تقف في صف مواز مع الدعوة إلى وحدة وادي النيل، فالتكتلات الإقليمية هي في النهاية إضافة للعمل العربي المشترك.. كذلك فإن الرئيس اللبناني الأسبق «كميل شمعون» يحتاج تاريخه إلى نظرة أكثر عدلاً وإنصافاً منذ أن كان سفيراً لبلاده بالعاصمة البريطانية في أواخر الأربعينيات وصولاً إلى رئاسته للدولة اللبنانية، حيث إنني أظن أنه كان تعبيراً عن الخصوصية اللبنانية ولم يكن متطوعاً بالعداء للعروبة أو المد القومي في عصر «عبد الناصر»، فضلاً عن أنه كان طرازاً سياسياً لبنانياً يستحق التحليل الموضوعي والتقييم النزيه.

.. إنني أدرك أن السطور السابقة واستعراض بعض النماذج التاريخية قد تفتح على أبواب الجحيم، ولكنني أدعو الأجيال الجديدة من شبابنا إلى قراءة موضوعية ومنصفة للملفات التاريخية المختلفة، وأن يتوقفوا طويلاً أمام الرموز المتعاقبة فتاريخنا لا يحتل الأضواء الجامدة ولكنه يحتاج إلى المراجعة الشاملة.. وبالمناسبة فإنه لا توجد مسلمات باقية ولكن توجد نظرات متطورة، وأنا أدعو الأجيال الجديدة إلى دراسة تاريخها الوطني دون تحامل على فترات معينة أو حماس مفرط لفترات أخرى، وأحسب أن فتح الملفات لن تكون مسألة عقيمة لأن المستقبل المشرق والإصلاح الحقيقي لا يأتيان إلا من ماض واضح وعبرة كاملة.



## وصايا العم «بطرس»

الدكتور «بطرس بطرس غالى» شخصية مصرية فريدة تحتاج إلى دراسة واعية وفهم عميق، ولقد ربطتني به ظروف تمتد لأكثر من أربعين عاماً عرفته خلالها عن قرب أستاذاً جامعياً لامعاً ووزيراً مرموقاً، ومضت علاقتي به وثيقة قوية وهو يشغل الوظيفة الدولية الأولى كسكرتير عام للأمم المتحدة، وفي كل المراحل وجدته فى حوار مستمر مع الذات، وتفكير متصل من أجل وطنه، لم نعرفه يوماً بدينه أو عقيدته ولكن عرفناه دائماً بعلمه المنظم وطريقة تفكيره الحسيفة وهويته الوطنية البارزة، وأظن أننا - نحن تلاميذه - قد التقطنا درجة عالية من جدلية التفكير وتقاليده الحوار من ذلك الرجل الشامخ بدءاً من أول محاضرة حضرتها له فى «قاعة البحث»، عندما أوصانى أن أكتب دراسة حول فكرة التنظيم الدولى الإسلامى عند «عبد الرحمن الكواكبى» مستمداً من كتابه «أم القرى» وصولاً إلى استفزات المحاور المشاغب «أحمد منصور» وهو يستدرج أستاذنا فى برنامج «شاهد على العصر» فى قناة الجزيرة، وبرغم أن المسافة بين الحديثين تصل إلى ثلاث وأربعين سنة فإن «بطرس غالى» ظل هو نفسه «بطرس غالى» الديمقراطى بطبيعته. المجادل بفطرته، المحترم بشخصيته، والذى يهمنى فى هذه السطور هو أن أتحدث مع القارئ حول بعض وصاياه المرتبطة بالسياسة الخارجية المصرية، وقد هاتفته مستفسراً عن صحته متمنياً لأستاذى عافية دائمة وعطاءً مستمراً، ولكنه - كعادته - يحيل دائماً أحاديث المجاملة إلى موضوعات مفيدة يبدى فيها رأياً أو يسدى نصيحة، ولقد لفت نظرى فى حديثه لى مؤخراً الوصايا التالية:

أولاً: كان الدكتور «بطرس» عائداً من زيارة أخيرة «للهند» وهى زيارة تقليدية شبة سنوية حرص عليها للعاملين الآسيويين «الهند» و«الصين»، وكان مما قاله لى إن الهند تتطلع بإلحاح لزيارة من الرئيس «مبارك» لأنها لم تسعد باستقباله منذ عام 1983م، وأضاف أنهم ينتظرونه بوحدة من أرفع جوائزهم على الإطلاق تقديراً لدوره منذ سنوات على الساحتين الدولية والإقليمية، ولقد صدقت مقولة الدكتور «بطرس غالى» عندما جاء إلى مصر بعد ذلك بأيام قليلة مبعوث هندى خاص

استقبله الرئيس «مبارك» وهو السفير الهندي المعروف «جاراكان» الذى التقيته على عشاء فى منزل السفير الهندي بالقاهرة، حيث كان التعليق يدور حول مقال لى فى صحيفة «الأهرام ويكلي» حول العلاقات العربية - الهندية، ولقد ذكر لى المبعوث الهندي أن الرئيس «مبارك» قد بادره عند استقباله بالقول إنه ينتوى زيارة الهند قريباً بعدما حالت شواغل المنطقة المتتابعة من تحقيق تلك الزيارة فى السنوات الماضية، وقد تحدث الضيف الهندي حديثاً طيباً عن مستقبل العلاقة بالجارا «باكستان» وكيف يمكن أن تدخل المنطقة مرحلة الاستقرار بعد طول توتر، وهو حديث قريب من الانطباع الذى خرج به الدكتور «بطرس غالى» بعد لقائه برئيس وزراء الهند، حيث بدت القضية الفلسطينية حاضرة فى الضمير الهندي لا تتراجع ولا تموت برغم العلاقات الوثيقة التى ربطت الهند بإسرائيل فى السنوات الأخيرة.

ثانياً: تحدث الدكتور «بطرس غالى» عن التطلع المصرى لشغل مقعد إفريقي دائم فى مجلس الأمن، وتناول الموضوع بحماسة المعهود مؤكداً أن العلاقات الإفريقية الهندية وثيقة للغاية تجمعها أواصر عديدة ليس أقلها العضوية المشتركة بين الدول الإفريقية «الأنجلوفونية» والهند من خلال مجموعة دول «الكومنولث»، ولذلك فهو يرى أن جزءاً من التأثير المصرى فى القارة الإفريقية يمكن أن يأخذ طريقه عبر «نيودلهي» فضلاً عن الطرق المباشرة التى تربط مصر بشقيقاتها فى القارة الإفريقية، والدكتور «بطرس غالى» له رؤية فاحصة فى المسرح السياسى الإفريقى بالذات وعلى الساحة الممتدة من أعماق القارة إلى القاهرة فالفضاء الإفريقى ارتبط بالدكتور «غالى» أكاديمياً وسياسياً ودبلوماسياً، فهو يؤمن بأن القارة الإفريقية هى مجال حيوى طبيعى لنا وشراكة إنسانية ممتدة عبر التاريخ، ولقد لعب هو شخصياً دوراً كبيراً فى تعظيم الدور المصرى فى قارته الأم، وأشهد أنه قد حذرني من احتمال خسارة فادحة لمصر فى موضوع مونديال ٢٠١٠م، كما أنه تشكك أيضاً فى إمكانية حصول مصر على قرار إفريقى بأن تكون «القاهرة» هى عاصمة برلمان الاتحاد بسبب تأخر الدبلوماسية المصرية حينذاك فى التوقيع على اتفاقية ذلك البرلمان، وأشهد أن حدس العالم الجليل كان صحيحاً فى المرتين.

ثالثاً: عندما امتد الحديث بنا مع الأصدقاء الهنود فى دار السفير بالقاهرة فى حضور نخبة من مثقفي مصر ومفكريها أثرت مع المبعوث الهندي ما يبدو أن الهند قد أصبحت طرفاً فيه، وهو المحور الذى يربطها بجنوب إفريقيا والبرازيل بدلاً

عن المحور التاريخي الذي ربط «نيودلهي» «بالقاهرة» و«بلجراد» في تلك الأيام الخوالي، التي ملأت فيها حركة عدم الانحياز بزعامة «نهرور» و«عبد الناصر» و«تيتو» فراغاً دولياً في سنوات الحرب الباردة. ولقد كانت روح المبعوث الهندي وأفكاره قريبة من روح وأفكار تلك السنوات التي رحلت مع ستينيات القرن الماضي، فهو يتساءل عما يمكن أن تفعله الهند لخدمة التسوية السلمية للصراع العربي الإسرائيلي؟ وأسلوب دفع العلاقات المصرية - الهندية لتعود إلى زخمها القديم؟ عندئذ تذكرت الدكتور بطرس غالى الذى ظل يراهن دائماً - أستاذاً ووزيراً وموظفاً دولياً رفيعاً - على القوى الصاعدة فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، بالإضافة إلى جذوره الفكرية الأوروبية التى جعلته فى كثير من الأحيان غير محسوب على الضفة الغربية من الأطلنطى، وصنعت بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية حساسيات انتهت بإبعاده عن موقعه، برغم أنه كان شخصية قوية تحاول أن تجعل لدور الأمين العام مساحة معقولة من الحركة مع سبيل من المبادرات المتجددة على الصعيدين السياسى والدبلوماسى وتحريك قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة على امتداد خريطة العالم.

.. ذلك هو «بطرس بطرس غالى» المصرى حتى النخاع، الوطنى من الأعماق، المهموم بمصر فى كل المناسبات، والذى يحمل وطنه على كاهله فى كافة المحافل والمؤتمرات، إنه «بطرس غالى» ابن الفجالة الذى كان عضواً فى مجلس الشعب المصرى ونائباً لرئيس الوزراء، وهو أيضاً «بطرس غالى» الذى تعرض لحملة ظالمة وهجمات شرسة لأسباب لا تتصل به ولكنه ظل دائماً ذلك الإفريقى المصرى الذكى الذى لا تغيب رؤيته أبداً. وما زلت أذكر أن محطة الإذاعة البريطانية عندما قدمته يوم انتخابه أميناً عاماً للأمم المتحدة قالت: إنه «بطرس غالى».. إفريقى ولكنه غير أسود، عربى ولكنه غير مسلم، مصرى ولكنه غير فقير!

هكذا كانت الطعنات توجه إلى ذلك الأستاذ الشامخ وهو يبدو كالطود الأشم الذى لا تؤثر فيه الرياح العاتية ولا الأنواء الكاسحة، والدكتور «بطرس غالى» الذى ترأس المجلس القومى لحقوق الإنسان بالإضافة إلى رئاسته لمنظمات دولية أخرى ذات طابع سياسى إنسانى مثل منظمة (الجنوب) بعد أن كان أميناً عاماً لـ«الفرانكفونية» يتخذ من

«باريس» مقرًا ومن القاهرة مستقرًا، وقد اقترحت عليه أن يتواجد في مصر كل عام في فترة الشتاء ما بين عيد ميلاده وعيد ميلاد السيد المسيح أي أن يكون في مصر من الرابع عشر من نوفمبر إلى السابع من يناير كل عام. إنه «بطرس بطرس غالي» سليل عائلة قبطية عريقة ونجم دولي مرموق نعزز به ونفاخر، ونستمع إلى وصاياه وننصت، ونؤمن بحكمته ونستفيد، وأعتز أنا شخصيًا بأنني أشاركة يوم المولد برغم خلاف السنين.

□□□

## «محمد على» بعد قرنين

يتواكب عام ٢٠٠٥م مع ذكرى مرور قرنين كاملين على وصول «محمد على» إلى حكم مصر بالإرادة الشعبية، يوم أن ألبسه علماء الأزهر والأعيان رداء الحكم واختاروه والياً على مصر، في إشارة واضحة إلى التعبير عن الإرادة المصرية في اختيار الحاكم لأول مرة بعد أن استيقظت الروح الوطنية على صوت مدافع «نابليون بونابرت» قبل ذلك بسنوات قليلة، ولا شك أن «محمد على» يمثل علامة فارقة في تاريخ مصر حيث تبدأ معه عملية التحديث، ويرتبط به ميلاد مصر المعاصرة التي تعايشت مع الصراعات الدولية وساهمت في الأحداث الإقليمية وأصبحت قوة فاعلة في جنوب المتوسط والشام والحجاز والسودان وشرق إفريقيا.

لقد أسعدنى كثيراً أن المشروع القومى للترجمة الذى يشرف عليه المجلس الأعلى للثقافة المصرية قد أصدر ترجمة رائعة لكتاب الدكتورة «عفاف لطفى السيد مارسو» بعنوان «مصر فى عهد محمد على»، وهى من أسرة أستاذ الجيل «أحمد لطفى السيد»، كما أنها أستاذة ذائعة الصيت فى مجال دراستها، فهى الآن أستاذ تاريخ الشرق الأوسط فى جامعة كاليفورنيا فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن أمضت حقبة من تاريخها الأكاديمى فى المملكة المتحدة، وقد قام بترجمة الكتاب السفير «عبد السميع زين الدين» وراجعه السفير الدكتور «السيد شلبى»، ويضم الكتاب بين دفتيه فصلاً رائعة ما أحوجنا لقراءتها ومتابعة أحداثها وتحليل نتائجها بعد قرنين من الزمان من ميلاد مصر الحديثة.

ولقد شد انتباهى ذلك الدهاء السياسى الذى تميز به الرجل الألبانى القادم من «نجر قولة» الواقع حينذاك فى «مقدونيا» حيث ولد فى العام نفسه الذى ولد فيه «نابليون» حسبما تشير بعض الكتابات، ودعونا الآن نتأمل كيف كان «محمد على» يحاول تربية أولاده... ففى رسالة بعث بها إلى ابنه «سعيد» الذى كان يميل إلى البدانة بسبب الإسراف فى الطعام - وهو الذى أصبح بعد ذلك والياً على مصر - عندما ألحقه ملازماً فى البحرية ووضعه تحت رئاسة أمير البحر «ماتوش» باشا وطلب منه أن يعامله فوق ظهر السفينة بمثل ما يعامل أى ملازم آخر ودون معاملة خاصة، وقد كتب «محمد على» إلى

ابنه رسالة وردت في الكتاب المشار إليه يقول فيها: «هل تذكر أنني قلت لك إن ملك إنجلترا قد خدم في البحرية برتبة ملازم، وتدرج في الرتب مثل كل الضباط الآخرين حتى أصبح «أدميرالاً»، وبعد ذلك بقليل أصبح ملكاً، فطالما كنت على ظهر سفينة فتذكر أنك لست إلا مجرد ملازم، وعليك أن تقوم بالمهام التي تكلف بها، وأن تتعلم فنون البحر وعلومه وأن تطيع رؤساءك من الضباط، لقد أرسلتك إلى البحرية على أمل أن تصبح منارة للأسرة، ولقد وصلت إلى أسماعي شائعات مفادها أنك لا تقف انتباهاً لرؤسائك وأن «ماتوش» باشا لا يجلس في حضرتك حتى تأذن له، يا ولدي لقد أرسلتك إلى البحرية طبقاً للتقليد البريطاني وطالما أنت هناك فعليك أن تتصرف كما ينبغي للملازم أن يتصرف، فأنت لست سوى ضابط صغير على سفينة ويجب أن تعامل كذلك». كما أرسل إليه ذات مرة خطاباً آخر يؤنبه فيه لأنه يخالط النوعيات السيئة من الناس.. والغريب في الأمر أن «محمد علي» الذي ظل أمياً حتى سن السابعة والأربعين كانت رسالته الدائمة إلى أبنائه «تعلموا تعلموا»، وكان يتابع بدقة الكتب التي يقرأونها والدروس التي حفظوها وما يجب أن يفعلوه في المستقبل، لذلك ليس غريباً أن يتمكن ذلك الرجل من وضع لبنات الدولة الحديثة في مصر لأنه كان يؤمن بالتعليم طريقاً للاستنارة وسبيلاً للتحرر العقلي والفكري وقيام مصر المستقلة.

إنه «محمد علي» الذي ارتبط اسمه بأكبر امبراطورية مصرية في العصر الحديث، وهو الرجل الذي اتسم بالحصافة واكتمال الرؤية والقدرة على استشراف المستقبل، كما بذل جهوداً عمرانية في كافة المجالات، في الزراعة والري، في التعليم والبعثات، في التنظيم والصحة، في الأمن والاستقرار، فقد أراد الرجل أن يستقل بمصر عن السلطنة العثمانية، فكان بحاجة إلى جيش قوى ومثل هذا الجيش يحتاج إلى سلاح حديث والسلاح يحتاج إلى تصنيع حربي وغير حربي تقف وراءه تكنولوجيا عصره، وهي لا تتحقق دون تعليم متقدم وهو الذي يحتاج بدوره إلى بعثات في الخارج، تلك كانت التداعيات التي جعلت «محمد علي» قادراً على الوصول إلى تصور شامل لشكل مصر في ذلك الوقت. ويهمننا هنا بعد قرنين من الزمان أن نحیی ذكری ذلك الرجل الذي غير وجه الحياة في الشرق الأوسط، وجعله قوة فاعلة في العلاقات الدولية منذ مطلع القرن التاسع عشر، ولنا أن نورد على هذه التجربة الكبرى عدداً من الملاحظات نوجزها فيما يلي:

أولاً: إن قيام الدولة العصرية الحديثة لا بد أن تقف وراءه إرادة واعية ذات رؤية شاملة، ولا يمكن أن يتحقق بالنظرات الجزئية أو الأفكار المتناثرة ولكنه يحتاج إلى عقلية جماعية قادرة على امتصاص الحقائق وتحويلها إلى قرارات للمستقبل الذى يستمر ويتواصل دون انقطاع أو توقف، ولقد كان «محمد على» نموذجاً فريداً فى ذلك.

ثانياً: إن الحديث المتكرر عن أن مؤسس حكم الأسرة العلوية إنما كان يطمح فقط إلى تحقيق مصالحه الشخصية وتحويل مصر إلى ضيعة يحكمها هو وأولاده أمر مردود عليه، فالفصل بين الأهداف الشخصية والغايات الوطنية يبدو أحياناً فصلاً نظرياً بحتاً، ولا نستطيع الآن بعد مضى قرنين من الزمان على احتفال القلعة بتنصيب «محمد على» أن نتحدث فقط عن أطماعه - وقد كانت كثيرة - متناسين الخدمات الجليلة التى قدمها لمصر، والتى ليس أقلها «القطار الخيرية» وليس أكثرها المكانة الدولية التى صنعها لمصر، مدركين فى الوقت ذاته أنه هو أيضاً «محمد على» صاحب «مذبحة القلعة»، وهو أيضاً الذى غدر بالحركة الوطنية ورموزها بعد فترة قصيرة من توليته حكم البلاد.

ثالثاً: إننى ممن يعتقدون أن حكم الأسرة العلوية لم تكن نتائجه سلبية فى مجملها، ففيها «محمد على» الكبير المؤسس وصانع الإمبراطورية التى قلصتها «معاهدة لندن» عام ١٨٤٠م، وفيها «إبراهيم باشا» أبو العسكرية المصرية، والذى دانت له إمبراطورية المشرق فحكم الشام تسع سنوات بدءاً من عام ١٨٣١م بعد مغامرات فى الجزيرة العربية لصالح «الباب العالى»، فى وقت كانت فيه حدود الحكم المصرى تبدأ من منابع النيل وتنتهى على مشارف هضبة «الأناضول»، وفيها «سعيد باشا» أيضاً الذى يسميه المؤرخون «صديق الفلاح» لأنه هو صاحب «اللائحة السعيدية»، وهى الأسرة التى أنجبت «إسماعيل المفترى عليه» والذى حاول أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا فأغرقها فى الديون، كما أن الخديو «عباس حلمى» قد أبدى تعاطفاً فى بعض فترات حكمه مع الحركة الوطنية المصرية، فى محاولة لتصحيح أخطاء أبيه «محمد توفيق» الذى جلب الاحتلال البريطانى للبلاد، كذلك فإننا نرى أن عصر «فؤاد» بكل جهامته المعروفة هو عصر تطوير التعليم وقيام المؤسسات الثقافية الأدبية والفنية، وهو عصر ميلاد الجمعيات العلمية ونضوج المجتمع المدنى.

رابعاً: إن تاريخ الأسرة العلوية الذى نحتفل هذا العام بالمتوية الثانية لوصول مؤسسها إلى حكم مصر يجب أن نتناوله بصورة شاملة تناقش الإيجابيات والسلبيات، فلا يجب أن نتوقف عند حدود القول إنها أسرة أجنبية كرسست الإقطاع فى الريف ووزعت «الأبعديات» وتجاهلت أحياناً الروح الوطنية، بل يجب أن نشير أيضاً إلى دورها فى تحديث مصر وتطوير شكل الحكم والنهوض بالمجتمع المصرى حتى قامت الثورة عام ١٩٥٢م فى محاولة لتعديل الأوضاع وتصحيح المسار.

خامساً: إن «محمد على» تحديداً - ودون أولاده وأحفاده - يمثل حجر الزاوية فى الانتقال من العصر المملوكى المضطرب والحكم العثمانى المباشر، للدخول فى كيان الدولة العصرية المستقلة صاحبة الدور الفاعل فى المتغيرات الدولية والإقليمية مع النصف الأول من القرن التاسع عشر.

.. لقد أردت من هذه الملاحظات أن أعطى المناسبة قدرها وأن أسجل «لمحمد على» حق الاحتفاء به بعد مائتى عام من توليه، معترفاً بأفضاله وفى الوقت نفسه مدركاً لخطاياها مؤكداً أنه هو الحاكم الذى خرج بالدولة من عباءة الدين وحده إلى مظلة الوطن والقومية أيضاً، كما أن له من المواقف الشهيرة ما يجعله نموذجاً للدهاء السياسى والرؤية الثاقبة مع الرغبة فى الإصلاح والتغيير، إنه بحق «محمد على» واضع الأسس التاريخية لمصر الحديثة.



## إمام الإصلاح.. مئوية الرحيل

كلما ترددت كلمة الإصلاح تذكرت الإمام «محمد عبده» فهو رائد الإصلاح الديني والاجتماعي في تاريخنا الحديث، إليه تنتسب الرؤية الواضحة، وبه يرتبط الفهم العميق لعلاقة الإسلام بالآخر، إنه الإمام المجتهد الذي جمع بين الثقافتين الإسلامية والأوربية فأصبح نتاجاً لحضارة الشرق والغرب في آن واحد، إنه الإمام الذي تميز بالانفتاح وأدرك مبكراً أن الثقافات تتواصل وأن الحضارات تتكامل، فكان مثلاً رفيعاً لرجل الدين الإسلامي الذي نفتقده الآن، لقد جمع الإمام «محمد عبده» بين رصانة التراث ومرونة الحداثة وأقام شبكة قوية من العلاقات الفكرية والأكاديمية مع أبرز شخصيات عصره؛ فكانت مراسلاته مع الأديب الروسي الشهير «تولستوى» شاهداً على تفتحه المبكر واستنارته الشاملة.

ونحن إذ نحتفل هذا العام بمضى قرن كامل على رحيل الإمام العظيم الذي شغل منصب الإفتاء ولم يكن يوماً شيخاً للجامع الأزهر، ومع ذلك حمل على كاهله مسئولية إصلاح الأزهر الشريف والنهوض به وربطه بحياة عصره، وعندما عاش في «باريس» لبضع سنوات مصدراً مع «الأفغانى» «العروة الوثقى» لاستنهاض هم المسلمين وتنقية الإسلام من الشوائب التي علقت به مع إجراء مصالحة واعية بين أصحاب الديانات، أليس هو القائل: (لقد وجدت في فرنسا إسلاماً بغير مسلمين، بينما تركت في بلادى مسلمين بغير إسلام)؟!.. فلقد أدهشه صدق الآخر وأمانته مع نفسه ومع غيره حتى استكشف الإمام بصيرته الجوانب المتميزة في حضارة الغرب، ولم يقف منها موقف العداة بل تفاعل معها في ندية وذكاء لكى يكمل الحلقة المتينة التى بدأها الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى»، وحتى يكتمل «العقد الفريد» من رموز الإصلاح والتنوير التى انطلقت من مصر لتشع على العالمين العربى والإسلامى.

إن «فلاح البحيرة» ابن قرية «محلة نصر» مركز «شبراخيت» قد ترك بصمة فى تاريخنا الحديث ثقافياً ودينياً وسياسياً، كما خاض المعارك الضارية دفاعاً عن وجهة نظره وإيماناً بما اقتنع به وعاش من أجله، وظل يطوف بقاع العالم الإسلامى مع رفيقه «الأفغانى» للدعوة إلى الإصلاح والحرية وإعمال العقل والاعتماد على الدلائل العصرية لإثبات الألوهية

وتقوية الإيمان ومقاومة الإلحاد والرد على «الدهريين»، كما أن الإمام قد شغف بالدراسات المقارنة للأديان السماوية وأبلى فيها بلاءً حسنًا وظل داعية للحوار والاتصال والتعايش المشترك.. إنه «محمد عبده» الذي دعم «العرابيين» وناصر الحركة الوطنية المصرية وربط بين نهضة الأمة وحركة التنوير، ولعله يكون من المناسب مع الذكرى المئوية لرحيل الإمام المصلح أن نرصد الملاحظات التالية:

أولاً: إن نموذج الإمام «محمد عبده» فريد من نوعه فهو نسيج وحده؛ إذ إن ذلك الأزهرى المستنير قد خرج على السياق الجامد لكي يكون شعلة مضيئة تهدى معاصريه وتابعيه، بدءاً من «الأفغانى» مروراً «بالكواكبي» و«شكيب أرسلان» وصولاً إلى صاحب المنار «محمد رشيد رضا»، لذلك كان طبيعياً أن يكون الاحتفاء بالإمام العبقري غير قاصر على مصر وحدها، فله في الشام مكانة وفي الغرب منزلة لكن مصر كانت هي المستقر الأخير والمقام الدائم.

ثانياً: إن ظهور «الإمام» «محمد عبده» في وقت كان الأزهر يواجه فيه محنة التخلف ونزعة العزلة هو المصدر الحقيقي للاعتزاز والفخر وتأكيد الهوية، فقد ظهر الرجل في فترة انحطاط ارتبطت بهزيمة «عرايى» ودخول البريطانيين وبداية الاحتلال، ولكنه ظل محتفظاً بتوازنه قادراً على صياغة خطاب ديني اجتماعي سياسى ترك بصمة في تاريخ الحركة الفكرية في مصر الحديثة.

ثالثاً: يجسد الإمام العلاقة المعروفة بين المفكر والسلطان، فهو نموذج مستقل لا يمكن تصنيفه في الزحام مع غيره لذلك تظل سيرته موضع اهتمام واحترام دائمين، وسوف يظل علامة مضيئة في الفكر السياسى والإصلاح الدينى واليقظة الوطنية، ولقد كانت علاقته بأسرة «محمد على» وحكامها الذين عاصروهم تتصف بالاستقلالية والتمسك بالمبدأ في مواجهة كل خديو عاصره أو احتكك به.

رابعاً: إذا كانت بعض الشكوك قد أحاطت بشخصية «الأفغانى» ودوافعه، وحتى لو تمشيننا مع رأى المفكر المصرى الراحل د. «لويس عوض» من احتمال أن يكون «الأفغانى» إيرانى الأصل مرتبطاً بالمخابرات البريطانية، فإن الإمام المصرى «محمد عبده» يملك صفحة ناصعة البياض تتسم بالشفافية بما فى ذلك ما تردد عن علاقته «بالحركة الماسونية» وارتياحه لمحافلها، وقد كانت تلك الحركة تضم صفوة العقول المتميزة فى عصره.

خامساً: إن الإمام المجتهد الذى حاول أن يصلح من شأن الأزهر وأن يقتحم المؤسسة الدينية بفكر مستنير ورؤية جديدة، يبدو الآن - أكثر من أى وقت مضى - قدوة لما يجب أن يكون عليه رجل الدين، ولعل ذلك يذكرنا بأهمية العودة إلى نظام الابتعاث بحيث يتمكن الداعية الإسلامى من الاحتكاك بثقافة أخرى وينفتح على معارف مختلفة ويحتك بعقليات متميزة، فقد خرج الإمام من مصر وهو يحمل شهادة العالمية الأزهرية لكى يفتح حواراً موضوعياً عميقاً مع مفكرى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حتى أصبحت كتاباته ومراسلاته سجلاً للحياة الفكرية فى تلك الفترة، كما اعتمد على الأدلة العقلية ولم يقف عند حدود الأدلة النقلية فى ردوده على دعاوى المستشرقين والمعنيين بدراسة الإسلام ومقارنة الأديان.

.. هذه ملاحظات استوحيناها من الذكرى المئوية لرحيل الإمام «محمد عبده» حيث كانت الحركة الوطنية المصرية فى مرحلة مخاض مبكر، فهى التى خرجت من الحركة العربية لتتهياً للثورة الشعبية عام ١٩١٩م، ولا شك أن عدداً من رواد الوطنية المصرية ودعاة الاستقلال قد تأثروا بفكر الإمام وروحه بدءاً من «مصطفى كامل» وصولاً إلى «سعد زغلول». . ويهمنى هنا أن أسجل على تاريخ الإمام أنه كان نموذجاً إصلاحياً نفتقده اليوم ونذكر أهميته حيث يبدو الإصلاح حاجة ملحة وقضية حاكمة فى هذا الظرف الإنسانى العصيب، ولعل أهم ما يميز عقلية الإمام هو أنه قد اعتمد الاجتهاد سبيلاً للمعرفة وفتح بابيه على مصراعيه إعلاءً لكلمة العقل وتقديساً لمفهوم الحرية، وإذا كان منطلق رواد الإصلاح الدينى والثقافى من بعده قد دفعهم لأن يسلكوا طريقاً صدامياً مع الأزهر مثلما فعل «طه حسين»، فإن دعوة الإمام وأسلوبه يتميزان بالحكمة والهدوء والقدرة على الإقناع والاحتواء مع درجة عالية من الانفتاح دون تفريط فى ثوابت الدين وأركان الإسلام. لقد احترم الرجل الشريعة لأنها تنزيل إلهى ولكنه ناقش الفقه باعتباره صناعة بشرية نتفق معها أو نختلف، وإذا كان المؤرخ المصرى الشهير «عبد الرحمن الجبرتى» قد أدهشته سلوكيات الفرنسيين أثناء الحملة على مصر فإن «رفاعة الطهطاوى» عندما كتب عن إقامته فى فرنسا كان مدفوعاً بالإعجاب الخفى والانبهار الصامت بالحضارة الغربية المسيحية، وهو ما أظهرته أيضاً كتابات الإمام «محمد عبده» وتعليقاته سواءً فى كتبه أو فى صحفه أو فيما تحدث به فى المناسبات المختلفة.

وإني انتهز هذه المناسبة لأطلب من الأزهر الشريف أن يجعل من مئوية الإمام الراحل نقطة انطلاق يخرج بها من عزلته ويفتح أمام دعائه وطلابه آفاقاً واسعة من المعارف العصرية والرؤى الرحبة والمفاهيم الصحيحة، ولتكن ذكرى الإمام بداية صحوة حقيقية وحركة إصلاح شاملة في المجتمعات الإسلامية، نتخلص بها من فكر «الزندقة» وغبار القرون وسنوات الهوان، وهذه نقطة تقودنا أيضاً إلى تأكيد أن شعار الإصلاح شعار مصرى رفعناه في القرن التاسع عشر ولسنا بحاجة إلى من يعطينا دروساً فيه مع القرن الحادى والعشرين، ولنتفق جميعاً على أن سيرة الإمام تجلب معها تلقائياً مفهوم سيطرة العقل على حياة الإنسان مع التأكيد على أهمية الحرية وقيمتها المتزايدة.

.. تحية للإمام بترائه الخالد وفكره الصامد ونظرته الثاقبة وآرائه الموضوعية، إنه بحق إمام المصلحين وقدوة رجال الدين، والشعلة التي انطفأت منذ مائة عام بعد أن أيقظت الضمائر وحركت الوجدان وأعلت من قيمة العقل ورسخت معنى الحرية.



## أوروبا الجديدة.. اتحاد الديمقراطيات

كنت عائدًا من جولة أوروبية عام ٢٠٠٧م تابعت فيها الأحداث في تلك القارة المضيئة التي شهدت منذ قرون «عصر النهضة» ثم ميلاد الدولة الحديثة وارتبطت بقضايا التطور والإصلاح، وعرفت الصراعات الدينية والعرقية والسياسية حتى استقرت في النهاية على ضفاف نهر الحرية الذي تتدفق عبره أمواج الديمقراطية، لم تكن المسيرة سهلة ولم يكن الطريق ميسورًا، فما أكثر ما شهدته تلك القارة من حروب وما تناثر على أرضها من أشلاء وما غطاها من دماء، ولكنها بقيت في النهاية تعبيرًا حيًا عن ضمير الإنسانية وتراثها الحضارى فى آخر صوره، والأوروبيون ليسوا بعيدين عنا فلقد عرفناهم وعرفونا عبر القرون، وجرى بيننا وبينهم احتكاك دائم لا يبدأ «بالأندلس» ولا ينتهى بـ«صقلية» ولا يتوقف عند حروب «الفرنجة» حول «بيت المقدس»، إنها علاقات حضارية وثيقة أسهمت فيها دول البحر المتوسط - بصفته الشمالية والجنوبية، حيث تطل عليهما قارات العالم القديم - إسهامًا تاريخيًا مشهودًا جعل منها مركز الثقل وبؤرة الانطلاق نحو التحديث والارتقاء، فيها ظهرت النظريات الكبرى من الماركسية إلى الداروينية إلى الفرويدية، وفيها اندلعت الثورات الكبرى وأهمها الثورة الفرنسية بشعاراتها العظيمة ومحتواها العميق، إنها أوروبا التي ما زالت تمثل الجانب الإنسانى فى حضارة العصر، فالولايات المتحدة الأمريكية تسبقها بالتقدم التكنولوجى والتفوق الاقتصادى والقوة العسكرية، بل إن اليابان قد تتميز هى الأخرى على كثير من دول القارة الأوروبية، ولكن يظل فى النهاية ذلك الحس الحضارى الذى ما زال يعطيها لونا خاصًا ومذاقًا مختلفًا، فمنها انطلقت كواكب المفكرين وخرجت قوافل العلماء، وتحرك الجميع نحو التنوير والحداثة من أجل تحرير العقل واستقلال الإرادة وطرح أفكار جديدة، يبدأ ميلادها من حضارة الإغريق فى «دولة المدينة» حتى «منظومة الأطلنطي» المعاصرة بكل ما تشير إليه وتدل عليه.

لذلك فإننى أظن أن أوروبا كانت دائمًا ملاذًا لدعاة الحرية وطلاب الديمقراطية ممن ينتسبون لحضارة العصر ورؤياه الباكرة، وعندما شهدت أوروبا حربين عالميتين فى القرن الماضى بالإضافة إلى الحركة الواسعة بعد ذلك والتي تمثلت فى ظهور دول إفريقية وآسيوية جديدة إيدانًا بنهاية العصر الاستعمارى والدخول بمنطق الندية فى علاقات دولية متكافئة أو هكذا كان يجب أن تكون، عندئذ اتجهت القارة الأوروبية نحو التوحيد وبناء كيان سياسى

متماسك قام على أسس طوعية وليس مجرد فورات عاطفية. وهنا قد يحسن بنا أن نرصد بعض الملاحظات المرتبطة بقضية الوحدة الأوروبية وكيانها المتمثل في اتحادها الذى بدأ بحركة الحديد والصلب، ثم انطلق من اتفاقية روما عام ١٩٥٧م ليبشر بميلاد أقوى اتحاد دولي عرفته البشرية فى العقود الأخيرة، وتتمثل أهم الملاحظات فيما يلي:

أولاً: إن أروع ما تقدمه التجربة الأوروبية لنا أنها تمثل مسيرة حرة قامت على الرغبة الاختيارية ولم تكن مشروعاً جامداً ملزماً من بدايتها، لذلك عرفت الاستفتاءات حول السياسة النقدية والتعريف الجمركية وتأثيرات الدخول وغيرها من الأبعاد العصرية للعلاقات الإقليمية فى إطارها الحديث.

ثانياً: إن نتيجة الاستفتاء على الدستور الأوروبى الموحد ورفض الشعبين الفرنسى والهولندى لذلك الدستور لا يمثل نقطة سلبية فى حياة الاتحاد أو طعنة ضد كيانه، ولكن يمثل فى النهاية درجة عالية من درجات الشفافية واحترام الإيرادات والاعتماد على الإجراءات الديمقراطية فى كل الخطوات التى أدت لقيام ذلك الصرح الكبير المسمى بالاتحاد الأوروبى.

ثالثاً: إن اهتمامنا بالاتحاد الأوروبى لا ينبع فقط من الجوار الجغرافى أو التراث التاريخى وحدهما، ولكن هناك شبكة المصالح التى تربطنا بدول الاتحاد والتى تجعل للصراع العربى الإسرائيلى أهمية خاصة لدى أوروبا الموحدة، فالترابط الأمنى واضح والشراكة الأورومتوسطية تمثل عاملاً جديداً فى تزايد الاهتمام بذلك الصراع خصوصاً وأن «المسألة اليهودية» كانت أوروبية الأصل، كما أن النزاع الإسرائيلى الفلسطينى بتطوراتهِ المتلاحقة هو أيضاً نتاج لأدوار أوروبية متتالية بدأت ببريطانيا ثم فرنسا حتى وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها الراعى الأساسى للدولة العبرية.

رابعاً: إن تطلع الملايين من شباب الشرق الأوسط لنموذج الحياة الغربية يشدهم بالضرورة إلى القارة الأوروبية، لذلك أصبحت الهجرة غير المشروعة هاجساً يسيطر على الاجتماعات المعنية بعملية «برشلونة» التى أكملت عامها العاشر فى عام ٢٠٠٥م وظهرت لها ملحقات وتفرعات، ونحن نظن أن الهجرة الإفريقية والآسيوية إلى القارة الأوروبية تبدو وكأنها محاولة للرد على الظاهرة الاستعمارية التى استندت على منطق الانتقال من الشمال إلى الجنوب بدعوى التنوير والتحضّر.

خامسًا: إننا نقول لأصدقائنا في أوروبا أثناء لقاءاتنا بهم على كافة المستويات: إن نظرية «صراع الحضارات» تنهار تمامًا أمام تاريخ العلاقات بين الحضارتين العربية الإسلامية والأوروبية المسيحية، كما أن فكر «العولمة» يستند هو الآخر إلى انسياب حركة رؤوس الأموال والخدمات والأفكار، ويجب أن يتضمن انتقال الأفراد أيضًا. وبذلك فإننا نؤكد من جديد أن الفكر الغربي الصحيح يدرك طبيعة العلاقة الوثيقة والارتباط المتين بين أوروبا والشرق الأوسط.

.. هذه ملاحظات أردنا منها أن يقف القارئ أمام الحقائق المرتبطة بعالم اليوم لأنها تضع أوروبا في مكانها الصحيح، وتجعل من دعمها مبررًا لتجاوز ما قلناه والاتجاه نحو ما لم نقله، بقي أن أشير إلى الأوضاع العامة من النواحي السياسية و الاقتصادية والثقافية في دول القارة الأوروبية؛ إذ إن توسيع الاتحاد يبدو للبعض خصوصًا في الدول الأوروبية الغربية كما لو أن دخول دول شرق أوروبا هو جذب للقارة إلى الخلف، لذلك يجب الاعتراف بالسرعات المتفاوتة داخل إطار الاتحاد. ونحن نرى في النموذج الأوربي نمطًا يستحق المحاكاة على صعيد العمل العربي المشترك، خصوصًا وأن الظروف تبدو متشابهة على نحو يسمح بالتداخل والاندماج، فالعربي لا يشعر بالاعتزاز في المدن الأوروبية بالقدر نفسه الذي قد يشعر به في المدن الأمريكية، مثلًا مدينة مثل «لندن» تبدو لى شخصيًا وكأنها «أم المدائن»، ذلك أنني نشأت علميًا بها وتطورت دراسيًا فيها، وذلك يعني أن الحواجز لا تنجح والضعوط لا تستمر إنما تبقى الدوافع الذاتية التي تخلق الرابطة بين الإنسان وأخيه الإنسان، بغض النظر عن الحدود الجغرافية أو الأصول العرقية أو الاختلافات الدينية، فالإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، وتبقى أوروبا بعد ذلك - في كثير من مواقفها - نموذجًا للاعتدال والقدرة على الفهم والرغبة المرنة في اقتحام المواقف المختلفة.. إنها أوروبا شريكتنا في العالم القديم ومصدر التنوير في العالم المعاصر.



## الإرهاب داء العصر

تناثرت أشلاء الأبرياء واتسعت بقع الدماء ذات يوم على أرض مدينة «شرم الشيخ»، وبدأت مصر الصامدة تواجه جرائم الإرهاب الذى عانت منه كثيرًا مثلما حدث للعاصمة البريطانية التى كنت أعيش فيها مع مطلع السبعينيات من القرن الماضى حيث كانت الدنيا مختلفة؛ الأمن يسود أرجاء المدينة برغم بعض التفجيرات المحدودة التى كان يقوم بها جيش التحرير الأيرلندى ومن بينها تفجير برج لندن الشهير، ولم يكن تعبير الإرهاب مستخدمًا حتى عندما بدأت المطارات إجراءات الأمن وتفتيش الركاب وحقائبهم لمواجهة ظاهرة خطف الطائرات التى كانت قد بدأت فى الانتشار بفعل بعض المنظمات الفلسطينية المتشددة، ولكن ظاهرة العنف العشوائى ازدادت بعد ذلك واكتسبت أبعادًا معقدة تطرح تساؤلات حول مشروعية استهداف الآمنين وترويع المدنيين وخلق العقبات، بدءًا من الحصول على التأشيرات وصولاً إلى إجراءات المطارات على نحو تضاعف معه حجم حرية الأفراد، والذى يهمنى فى هذه المناسبة هو أن أفتح باب الحوار مع كل من يهمله الأمر بالإجابة عن السؤال الأساسى فى هذا السياق، وهو الذى يدور حول حق صاحب القضية - أية قضية - فى اتخاذ وسائل إرهابية للحصول على حقه المفقود، ولعلنى أستأذن القارئ هنا فى عملية عصف ذهنى قصير تقوم على النقاط التالية:

أولاً: إن مشروعية الهدف لا تبرر استخدام الوسائل المرفوضة إنسانياً، فالتعميم فى التعامل مع الطرف الآخر هو فى حد ذاته جريمة من نوع جديد لأنها تتخذ من الغاية المقبولة ذريعة لاستخدام وسائل مرفوضة، أى إنها لا تقترب فقط من الطرح «المكيافيللى» بل تتجاوز ذلك إلى ما تمارسه من عنف وما تسقطه من ضحايا.

ثانياً: إن الإرهاب قد ولد فى ظل غياب تكافؤ القوى؛ فالقوة الكاسحة أمام القوة المحدودة تدفع الأخيرة إلى تبنى أساليب خفية تجعلها تمارس رد الفعل فى الظلام وبطريقة عشوائية. فالإرهاب فى حقيقته - وبغض النظر عن الدوافع والغايات - هو سلاح الضعفاء ووسيلة المهزومين، وأنا لا أقول ذلك تعاطفاً معه بل تصويراً حقيقياً للمعادلة المضطربة بين من يملكون القوة ومن يطالبون بالحق أو يتوهمون ذلك.

ثالثًا: إن الإرهاب ليس ظاهرة جديدة ولكنه ظاهرة قديمة قدم الحياة والإنسان، عرفت المجتمعات البشرية منذ العصور الأولى عندما كان العدوان على النفس وسلب الممتلكات ظاهرة همجية سبقت الحضارات وسمحت لشريعة الغاب ومنطق القوة أن تكون لهما السيادة دون غيرهما، كذلك فإن تاريخ الحضارات والديانات قد عرف الظواهر الإرهابية في مراحل مختلفة من تطوره. فالإرهاب بإيجاز هو عدوان عشوائي على الأرواح والممتلكات، وهو أيضًا عملية استهداف طائشة تسلب الأمن وتنتشر الرعب.

رابعًا: إن الإرهاب قد بدأ يغتال استقرار الأمم وأمن الشعوب حتى لم يعد في مقدور أحد أن يقبل الغاية إذا كان الإرهاب وسيلة تحقيقها، ولقد ظلم هذا الخلط أصحاب القضايا المشروعة في عصرنا ووضعها أمام تحديات بغير حدود، فالقضية العادلة تعتمد على وسائل قانونية وأساليب مقبولة.

خامسًا: إن معيار عدالة القضية يضيع في زحام نوعية المقاومة، وفي هذه المناسبة فإنني أذكر أنني قلت في إحدى المحاضرات العامة منذ سنوات: لماذا يلوم الغرب الفلسطينيين عندما يقومون بعمليات استشهادية بينما مارس الفرنسيون حق المقاومة الوطنية ضد «النازي» بكافة الوسائل أثناء الحرب العالمية الثانية؟! وأذكر أن سفير فرنسا السابق بالقاهرة قد طلب مقابلي لى يقول: إن المقاومة الفرنسية لم تقتل مدنيًا ولم تصب طفلة في «سوبر ماركت» أو عجزًا في حافلة عامة.. فالخلاصة إذا في باب شرعية المقاومة هي تجنب إصابة المدنيين لأن ذلك يعتبر جريمة حرب في وقت الحرب، ويسمى إرهابًا في وقت السلم.

.. ويبقى السؤال بعد هذه الملاحظات مطروحًا ومؤداه: هل من حق حركات التحرير الوطنى أن تسلك من الطرق وأن تستخدم من الوسائل ما يلفت النظر إلى قضاياها العادلة وغاياتها النبيلة وأهدافها القومية؟! هل يصبح من حق المقاومة الوطنية أن تخطف طائرة ركاب مدنية وتروع من فيها في ظل ظروف مأساوية تكررت كثيرًا؟! وهل يصبح من حق تنظيم «القاعدة» أن يفجر قطارات «لندن» لى ينبه إلى وجوده ويقدم بالعنف العشوائى وجهة نظره؟! وبأى حق تقتل جماعة مسلحة في العراق رئيس بعثة دولة عربية مسلمة شقيقة في ظل تبريرات عبثية وتحت مظلة إجرامية؟! وبأى منطق يضرب الإرهاب «شرم الشيخ» مدينة السلام حاصدًا الأعناق والأرزاق؟!

لقد بلغ السيل الزبى وتعقدت الحياة وتاهت المصالح فى ظل فوضى الإرهاب الكثيب الذى يطل على العالم بوجهه القبيح بين الحين والآخر لا يفرق بين ثقافة أو ديانة أو جنسية ، فلننظر حولنا ونرى كيف أصبحت الإجراءات الأمنية قيِّداً على حرية الانتقال ، فالعربى والمسلم هما محل شك مبدئى إلى أن يثبت العكس . كما أصبح خلع الملابس فى المطارات إجراءً معتاداً ورفض طلب التأشيرات تصرفاً متكرراً ، مع أن الإرهاب الإجرامى قد ولد فى أحضان الاضطهاد والاستبداد وغيبة العدالة فى العلاقات بين الدول ، فهو يبدو فى النهاية كرد فعل لمظالم لحقت ببعض الشعوب وأصابست عدداً من الأمم ، وأصحاب هذا التيار لا يبحثون عن مبرر للإرهاب ولكنهم يربطون بين السبب والنتيجة ، ويرون ما رآه السيد «تونى بلير» رئيس الوزراء البريطانى عندما صرح فى يوم الخميس الدامى حين وقعت تفجيرات «لندن» فقال : «إن الإجراءات الأمنية ليست هى الحل الوحيد للإرهاب ، بل إن هناك أساليب سياسية أيضاً لمواجهة ذلك الخطر الداهم من خلال دراسة دوافعه ومواجهة أسبابه والتصدى لنتائجها». ولعلى اجتهد هنا فأضع أمام القارئ بعض الأساليب السياسية لعلاج داء العصر ومواجهة الإرهاب بخلاياه المركزية والعنقودية وأقدم هنا المحاور الثلاثة التالية :

– إن الفقر وتدنى مستوى المعيشة وغياب الرؤية ونقص الثقافة هى بيئة حاضنة لتفريخ الإرهابيين لا فى العالم الإسلامى وحده ولكن فى كل المناطق التى تعاني من ظروف مماثلة ، وإذا كان الحلفاء قد فطنوا بعد الحرب العالمية الثانية إلى الأسباب الاقتصادية لها وخرجت الولايات المتحدة الأمريكية على العالم بمشروع «مارشال» لإنعاش أوروبا ، فإننا نظن أن للإرهاب أسبابا مشابهة لتلك التى تقف وراء الحروب ، وندعو إلى التركيز على العامل الاقتصادى كأحد الدوافع للعمليات الإرهابية ، وقد يقول قائل إن كثيراً من الإرهابيين قد جاءوا من بلاد غنية ولم يكونوا من الفقراء ، وهنا نقول إن الفقر قد لا يكون العامل الوحيد ولكنه أهم العوامل بالتأكيد.

– يعتبر التخلف السياسى واحداً من مكونات المناخ الذى ينمو فيه الإرهاب ويزدهر ، فغيبة الديمقراطية ونقص الحريات وضعف المشاركة السياسية وعدم تمثيل كل القوى الموجودة فى الشارع السياسى وحرمان بعضها من حقوقه السياسية ، هى كلها عوامل ترتبط بالدوافع الحالية للظاهرة الإرهابية ، وبهذه المناسبة فإننا نعتقد أن الإصلاح

السياسى والدستورى والاقتصادى والاجتماعى سوف يكون كفيلاً بمحاربة الظاهرة والقضاء عليها.

- يبقى المحور الأخير وقد يكون أهم المحاور على الإطلاق، وأعنى به سياسة الكيل بمكيالين وازدواج المعايير فى العلاقات الدولية وغيبة العدالة فى التعامل مع المشكلات المزمته، وفى مقدمتها القضية الفلسطينية باعتبارها قضية المسلمين والعرب الأولى، لهذا فإن الغرب يتحمل جزءاً من مسئولية انتشار العمليات الإرهابية، وعليه أن يشارك بفاعلية فى دفع الأساليب السياسية لمواجهة من خلال العمل على تسوية النزاعات الدولية والمشكلات الإقليمية فى توازن وعدالة.. ولذلك فإننى أظن مخلصاً أن تحول الموقف الغربى عمومًا والأمريكى خصوصاً عن الدعم المطلق لإسرائيل سوف يكون له تأثيره الجذرى فى ضرب الظاهرة الإرهابية وإيقاف نموها.

.. كانت هذه محاولة للتفكير بصوت عال فى واحدة من أخطر مشكلاتنا، إنها تلك التى تمثل بحق داء العصر.

